

إلا الإذعان والاستسلام، فهذا هو الذي يحير عقلي ويذهل لبّي ويكلّ خاطري ويدفعني إلى اليأس ويحملني على أن أسلك الطريق التي سلكها الملوك من قبلي.»

قال الملك: «فإن قلبك في حاجة إلى الرحمة يا ابنتي، وعقلك في حاجة إلى أن يكون أقوم تقديرًا للأمر؛ لقد نشأت على السلطان وتعودت حقوقه وواجباته. هُيئَت لذلك منذ درجت، وهُيئَ له من قبلك أبائك وأمهاتك، ونشأت الرعية على عكس ما نشأت أنت عليه، وعودت غير ما عودت، وهُيئَت لغير ما هُيئَت له منذ الزمان القديم الذي لا نعرف له أولًا، وكان هذا التفريق بين السيد والمسود خطأ، أفينبغي أن يستمر الخطأ؟! أليس من الممكن وقد ارتقت عقولنا ونفذت أبصارنا إلى كثير من حقائق الأشياء، وعلمنا أن هذه الفروق بيننا وبين الرعية مصطنعة لم تأت من الطبيعة، وإنما جاءت من الحضارة. أفليس من الممكن أن نصلح أغلاطنا ونقوم اعوجاجنا؟! بل أليس من الممكن أن نصلح أغلاط الطبيعة إن كانت هذه الفروق قد جاءت من الطبيعة؟! بل! هذا ممكن، هذا واجب يا ابنتي، ولكن لا بد للنهوض بهذا الواجب من أن نشعر قلوبنا بالرحمة والإحسان، ومن أن نؤمن بأن حياة الملوك ليست حقوقًا كلها، ولكنها واجبات أيضًا، وربما كان نصيب الواجب فيها أعظم من نصيب الحق. ما الذي يمنعنا أن نشعر الرعية بنفسها ونبصرها بحقها كما بصرناها بواجبها، ونهيئها لا أقول لتستأثر من دوننا بالأمر، ولكن لتشاركنا في الأمر وتعيننا على احتمال أعبائه الثقائل؟!»

قالت فاتنة: «ومن أجل ذلك أنشأت المدارس يا أبت وأذعت العلم وقد كان سرًا مكتومًا، ومن أجل ذلك رفعت إليك بعض النابهين من الدهماء، فكلفتهم ما كلفتهم من أعمال الدولة، وقد كانت أعمال الدولة مقصورة على أفراد أسرتنا، ومن أجل ذلك عرّضت نفسك لسخط الأمراء وكيد الشيوخ من رؤساء العشائر، وقد وصلت إلى كثير مما كنت تريد، فلولا هذه السيرة التي سرتها في الرعية لما ثار الاعتراض في نفوس الوزراء ورجال الحاشية حين أمرتهم أمري فأذعنوا له كارهين. هم الآن يضمرون الاعتراض وقد كانوا لا يشعرون به من قبل. أفهذا هو الذي أردت إليه؟»

قال الملك: «هو هذا يا ابنتي.»

قالت فاتنة، وقد وثبت إلى أبيها فضمته في رشاقة وقبلته في عنف: «وهو ما أريد إليه أيضًا. وَلَتَطْبُ نفسُك وَلَتَقَرَّ عينُك، فلن يصيب الرعية من هذه الحرب التي أثيرها سوء.» قال الملك وهو يتضاحك: «ماذا تقولين يا ابنتي؟! حرب لا يصيب الرعية منها سوء؟! أحرب هي أم لعب؟!» قالت: «بل هي الحرب كل الحرب.» قال: «أوضحني يا ابنتي عما